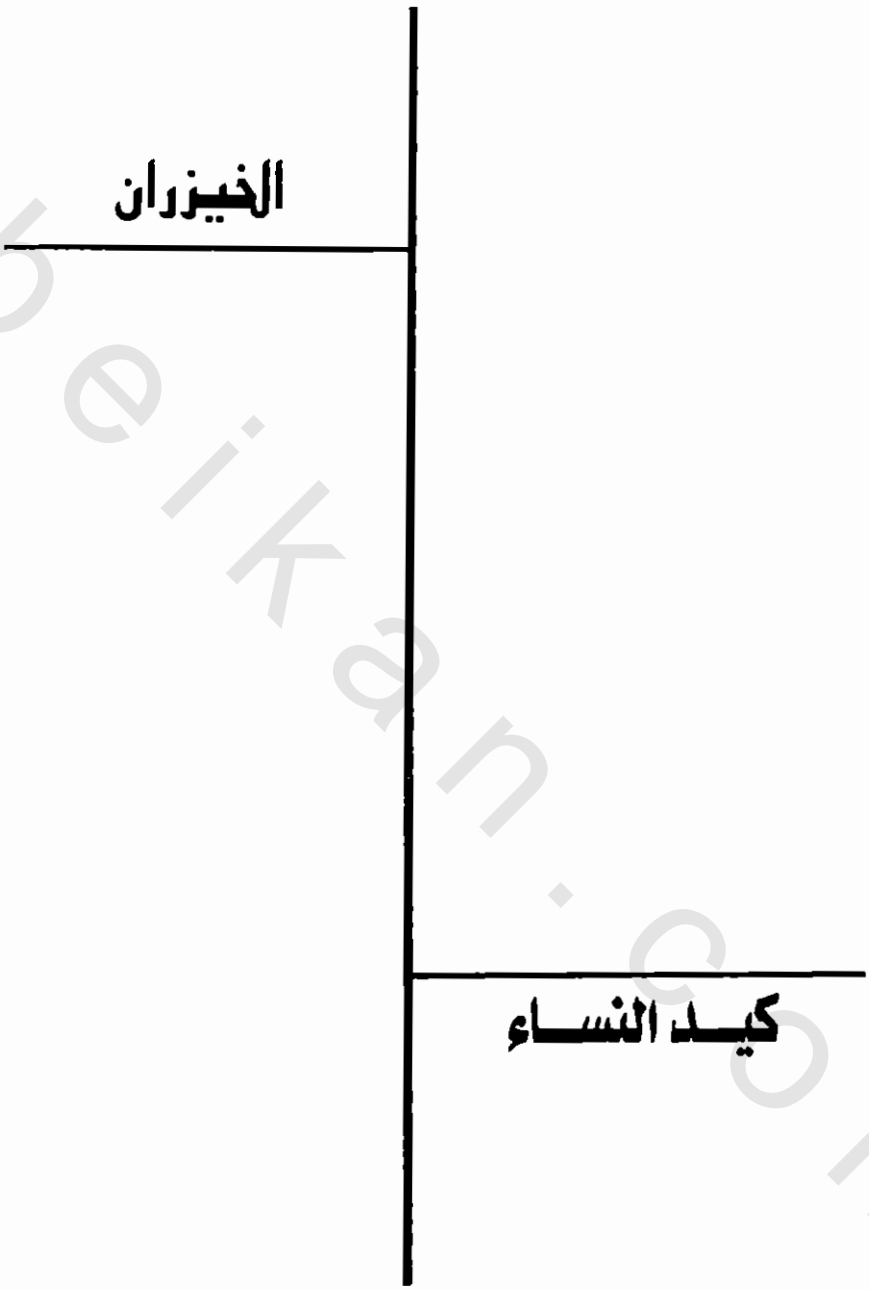

obeikan.com

obeikan.com

الخيزران

زوجة الخليفة المهدى

هي الخيزران بنت عطاء أعتقها الخليفة المهدى وتزوجها وهي جارية يمانية اشتراها بمائة ألف درهم ، وهي أم ولده المهدى ، ثم أنجبت بعد زواجه منها هارون الرشيد .

بعد أن صارت الخلافة للمهدى سيطرت عليه "الخيزران" بشخصيتها القوية وبالتالى سيطرت على مقاليد الحكم ، فكانت صاحبة الأمر والنهى في كل شيء ومما يدل على قوة شخصيتها وقوفها ضد رغبة المهدى في الزواج من غيرها وبلغ نفوذها وقوتها أن أبناءها كانوا يخشونها ومن خالفها أو اعترض قتلته .

حين مات المهدى وآلت الخلافة إلى موسى الهادى أرادت أن يكون لها نفس المكانة التي كانت أيام أبيه لكنه كان يرفض أن يتدخل أحد في أمور الحكم خاصة أمه ويرفض أن يقف الناس ببابها وتُسيّر هي الأمور كما كان يحدث في أيام أبيه ، فاتخذ موقفا متشددا معها وأرسل إليها: "لا تخرجى من خفر الكفاية إلا بذاذة التبذل فإنه ليس من قدر النساء الاعتراض في أمر الملك وعليك بصلاتك وتسبيحك وتبتلك ولك بعد هذا طاعة مثلك فيما يجب لك".

وحتى يغلق الباب نهائيا على من يقصد أمه من قواده الذين كانوا يأملون عندها التأثير عليه لقضاء حوائجهم (واسطة) جمعهم وقال لهم:

- أينا خير . . أنا أم أنتم؟

- قالوا: بل أنت يا أمير المؤمنين .

- قال: فأيكم يحب أن يتحدث الرجال بخبر أمه؟ فيقولون: أم فلان فعلت ، وأم فلان صنعت ، وأم فلان قالت .

- قالوا: ما أحدنا يحب ذلك .

- قال: فما بال الرجال يأتون أمي فيتحدثون بحديثها .

وهكذا عزل الهادى أمه سياسيا ، ولم يتوقف الأمر على العزل السياسى والإقامة الجبرية لأمه بل أراد أن يتخلص من أخيه هارون الرشيد بالقتل أو أن يخلع نفسه حتى تصير الخلافة إلى جعفر بن الهادى ، لكنه رأى أن قتله أفضل وصارح بذلك "هرثمة بن أعين" وأمره أن يذهب في ليلته فيأتيه برأس هارون الرشيد وطلب منه أن يحتاط في ذلك ورسم له خطة ، أن يخرجه برسالة من الهادى يستدعيه إلى حضرته ثم يأخذه إلى مكان ويقتله أو يدبر هو أمرا آخر ويأتيه برأسه ، فقال له هرثمة:

- يا أمير المؤمنين . . أخوك وابن أمك وأبيك وولى عهدك من بعدك فكيف تكون صورتنا عند الله تعالى أولا ، ثم عند الناس ، ولم يستمع الهادى إلى نصح هرثمة ولم يستيقظ ضميره وأجبر على قتل أخيه وقال "لهرثمة":

- عليك أن تسمع وتطيع وإلا ضربت عنقك .

فصمت "هرثمة" وأمره كذلك بالفتك بالطالبين وعدم مبارحة مكانه حتى إذا انتصف الليل بدأ بقتل هارون .

يبدو أن "الخيزران" كانت قريبة منهما فسمعت ما دار بين ابنها الهادى وبين هرثمة وربما سمعه أحد جواريها ونقله إليها فاختارت هارون الرشيد مادام أحد ابنيها لابد أن يفارق الحياة ورأت أن تتغدى بالهادى قبل أن يتعشى بأخيه الذي يبرها ويوقرها .

ويقال أنها انتظرت حتى شرب وسكر وجعلت بعض الجوارى يجلسن على وجهه حتى مات وذهبت فأحرجت يحيى البرمكى من محبسه الذي كان الهادى قد وضعه فيه ، ويقال أن الهادى كان قد حاول

قتل أمه بدس السم لها في الطعام لكنها كانت من الحرص بحيث لا تأمنه لذا جعلت خادمتها ألقت ببعضه إلى كاب فمات في الحال وكان في نفس الليلة قد أمر بقتل يحي بن خالد .

بعد موته والإفراج عن يحيى بن خالد ليتدبر أمر تولية هارون الرشيد الخلافة بدلا من ابنه جعفر بعد أن أخرجه من سجنه الذي كان قد أودعه فيه وجلست هي تبكى عند رأسه - أمام الموجودين - لكنها قالت حين أتى من يخبرها بموته من الخدم:

- إنا كنا نتحدث أنه يموت في هذه الليلة خليفة ويملك خليفة ويولد خليفة .

وقد أمرت الخيزران بعد أن تولى الرشيد بأن يقتل كل من كان تسرع إلى خلع هارون الرشيد ، ودعا إلى بيعة جعفر بن الهادى ، لكن يحيى أشار عليها بأن يلقى بهم في نحور الأعداء ، فإن دافعوا عن أنفسهم كان لهم في الدفع عنها شغل ، وإن أصابهم العدو استراحت منهم وبهذا تخلصت منهم جميعا .

وقد علت مكانة الخيزران في عهد الرشيد إلى أقصى درجاتها حتى فاقت ما كانت عليه في عصر المأمون .

* * *